﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾ [المعارج: 5 - 10]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

يَحسُن التَّوطئةُ لـلأمـر الثَّـقـيـلِ بـما يُـعـين على احْتِمالِه

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآياتِ السّابقة عن حال السّائل، الّذي سأل رسولَ اللّه ﷺ عن عذابِ مُنْكِر الدّين، أو دعا بالعذابِ على نفسِه تحدّيًا واستهزاءً، أو أخبر تعالى أنَّه ﷺ سألَ اللّهَ تعالى العذاب للكفّار، ودعا به عَلَيْهِم، وأخبر اللّهُ تعالى أنَّ ذلك العذابَ المسؤولَ واقعٌ لا محالةَ بأمر اللّه تعالى ذي المعارج، وطَمْأن بذلك رسولَه ﷺ؛ آن للنَّظْم الكريم أن يوجِّه رسول اللّه ﷺ إلى التَّسلُّح بسلاح الصَّبر الجميلِ في دعوته إلى اللّه تعالى، فقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾: (صبر) تَدورُ تصريفاتُها حول تَراكُم الشَّيء أو تكَدُّسِه مع تزايدِه أو دَوامِه على حالِه[1]، ومِنْهُ قولُهم: صَبَرْتُ نَفْسي عَلَى كذا؛ أيْ: حَبَسْتُها عليه[2]، بِأنْ دامَ حالُهُ على ملازمتِه.

وحقيقةُ الصَّبْرِ شرعًا المأمورِ به في نحو قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾: حبسُ النَّفس عَنِ الجَزَعِ، واللِّسان عَنِ التَّشَكّي، والجوارح عَنْ لَطْمِ الخدود وشَقِّ الثّياب ونحوِهما[3].

2) ﴿جَمِيلًا﴾: (جمل) تدور اشتقاقاتُها على معنيين؛ أحدهما:

(1) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صبر).
(3) ابن القيّم، عِدَةُ الصّابرين، ص: 15.

تجمّع وعظم خَلْقٍ، والآخَرُ: الحُسن[1]. ومِنْهُ: الجَمْلاء - بالفتح -: التامَّةُ الجِسمِ مِن كلِّ حيوان. والجَمول: المرأةُ السَّمينة. والجامل: الحيُّ العظيم. والجَمَل - محركةً -: الذَّكَر من الإبل إذا بَزَل في تاسِع سِنيِّه، والجُمَّلُ: الحَبْلُ الغليظ. ومن الجَمال: التَّناسُبُ المأخوذ من التجانُس في مقادير الأعضاء وهيئاتها بعضِها مع بعض، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النّحل: 6]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾. والصَّبْرُ الجميلُ في قوله تعالى: ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي: صبرًا طويلًا مع عِظَم التّحمُّل[2]، فلا يكون فيه جَزَعٌ[3].

3) ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: (مهل) تدلُّ اشتقاقاتُها على معنيين؛ أحدهما: التُّؤَدَة، والآخر: جنس من الذّائبات. فالأوّل - وهو التُّؤدة - تقول: مَهْلًا يا رجلُ، وما مَهْلٌ بمُغنيةٍ عنك شيئًا. والأصل الآخر: المُهل، وقالوا: هو خثارةُ الزّيت، وقالوا: هو النُّحاس الذّائب[4]، والمُهْلُ: الصَّديد والقيح[5]، ودُرْدِيُّ الزَّيت، أو عكر القَطِران، أو الفِضّة إذا أذيبَتْ[6].

ومن التَّميُّع يؤخذ معنى التَّراخي، والمَهَلُ والمُهلة: السَّكينة والتُّؤَدَةُ والرِّفْق والتَّباطؤ. وأمْهَلَه: أنْظَره ورَفَق به، ولم يَعْجَل عليه، ومَهَّله: أجَّلَه، قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: 17][7].

ومعنى المهل في الآية هو تحَوُّلُ لون السَّماء يومَئِذٍ إلى لونٍ آخرَ قريبٍ من الحمرة[8].

4) ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: (عهن) تدور تصريفاتُها على لينٍ وسهولَةٍ وقلَّة غذاء في الشَّيءِ[9]. ومنه قولهم: قضيب عاهِنٌ؛ إذا كان فيه انكسارٌ من غير بَيْنونة، تحسَبه صحيحًا، فإذا هززتَه انْثَنى. والعواهن: السَّعَفات اللّواتي يَلِينَ قُلْبَ النّخلة، وجرائد النّخل إذا يَبِسَتْ، وعروقٌ في رحِم النّاقة، والعِهْن: الصّوف؛ لِما فيه من ضعفٍ ولُيونَةٍ.

ومن ذلك: العاهِنُ؛ وهو الفَقيرُ الضَّعيف، والعاهِنُ أيضًا: الطَّعام الحاضرُ والشَّراب

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جمل).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 22/ 211.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهل).
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 346.
(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 352.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مهل).
(8) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 256.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عهن).

الحاضِرُ، يَسيرٌ سَهْلٌ لا كُلْفَةَ لَهُ. وأرسَلَ الكلامَ على عواهِنِه: ما حَضَر منهُ وعَجِلَ مِن خطأٍ أو صواب، وهو الكلام الضَّعيفُ؛ لأنَّه لا يُتَكَلَّف إحكامُه. والّذي في القرآن من التَّركيب هو (العِهن) والمرادُ به الصّوفُ في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾، وكذا في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: 5][1].

5) ﴿حَمِيمٌ﴾: الحميم: القريب المُشْفِقُ، كما قال ﷻ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشُّعَراء: 100 - 101]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، فالحميمُ هو القريبُ المشفِق، فكأنَّه الّذي يحتدّ حمايةً لِذَويه، وقيل لخاصَّة الرّجل: حامّته، وقيل: الحامّة والعامّة، ويدلّ على ذلك أنَّه قيل للمُشْفِقين من أقاربِ الإنسانِ حزانتُه؛ أي: الّذين يَحْزَنونَ لَهُ، واحتمّ فلانٌ لفلان: احتدّ، وذلك أبلَغُ مِن "اهتمّ"؛ لِما فيهِ مِن مَعْنى الاحْتِمام[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ شيءٍ مِنْ أحوالِ يومِ القيامَةِ

أمَر الله تعالى نبيَّهُ ﷺ بالصَّبر فقال سُبحانَهُ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، والمعنى: (اصبر - أيّها الرَّسول الكريمُ - على استهزائهم واستعجالهم العذابَ، صبرًا طويلًا مع عِظَمِ التَّحمُّل)، فلا يكون فيه جزعٌ، ولا شكوى منه لغيرِ الله تعالى.

ثُمَّ بيَّن سُبحانَهُ: أنَّ الكافرين يَسْتَبْعِدونَ العذاب ويَرَوْنَهُ غيرَ واقِعٍ، ونحنُ نَراهُ واقعًا قريبًا لا محالة.

ثُمَّ أخبر ﷻ أنَّ يوم القيامَةِ تكون السَّماء فيه سائلةً مثل حُثالة الزَّيت، وتكون الجبال كالصّوف المصبوغ المنفوش الّذي ذَرَتْه الرّيح. ولا يسأل قريبٌ قريبَهُ عَن حالِهِ وشأنه؛ إذ كلٌّ منهما مشغولٌ بنَفْسِه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عهن).
(2) الراغب، المفردات: (حمم).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ تفريعيَّة؛ تُفرِّع أمرَه تعالى رسولَه ﷺ بالصَّبر على تَطْمينِه إلى كون السّائل المستهزئ في قَبْضَتِه تعالى، وأنَّ عذابَه واقعٌ بهِ لا محالة. أو تُفَرِّع ذلك التَّوجيهَ الرَّفيق به ﷺ مِنَ اللّه تعالى على طلَبِه ﷺ العذابَ لهؤلاء الكافرينَ المكذِّبين.

مِن ضَرورات الدَّعوة إلى الله تعالى لزومُ الصَّبْرِ الجَميلِ

فـ (الفاء) تُعَلِّق توجيهَه ﷺ إلى الصَّبر على سؤالِ السّائل، والمعنى: إنْ سأل سائلٌ عن عذاب اللّه تعالى منكِرًا مستهزئًا "فاصبر يا محمَّدُ صبرًا جميلًا لا قلَقَ معَهُ؛ فإنَّ الموعودَ به حاصلٌ"[1].

دلالةُ التَّعبير بالصَّبْر، وغرَضُ الأمْرِ في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾:

الصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ توجيهٌ لَهُ ﷺ إلى احتمالِ إيذاءِ المُكَذِّبين المستهزئين بالدّين، واحتمال سوء أدَبِهم بـ "حبْس النَّفْس عن الجَزَع، وحبْس اللِّسان عن الشّكوى، وحبْس الجوارح عن التَّشْويش"[2]، وحبْسُ النَّفْس على تجرُّع الأذى الحسّيّ أو المعنويّ؛ بغرض الوصول إلى غاية ساميَةٍ، و"الوقوف لِحُكم اللّه تعالى، والثَّبات مِن غير بَثّ ولا استكراه"[3]، وهو ما تحلَّى به فعلًا الرَّسول ﷺ وسلّم في حياته كلِّها.

الصَّبر مفتاحُ الفرَج، وسُلَّمُ الصّعود إلى قِمّة النَّجاح

وغرضُ أمره اللّه عليه وسلّم بالصَّبر تسليتُه، وتسريةُ الحُزنِ عنه ﷺ، وتوجيهه إلى المنهَجِ الأمثل في دعوة المُنكِرين، وألّا يُؤاخذهم بأساليبِهم الهابِطَة؛ فلكلٍّ أخلاقُه ووِجهتُه، وتذكيرُه بأنَّ عاقبةَ الصَّبرِ النَّجاحُ، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 745.
(2) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (صبر).
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 402.

ٱلسَّيِّئَةُ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ [فُصِّلت: 34]. وقد تحقَّق له ﷺ بالصَّبر ما أراد، وفتح اللّهُ تعالى به القلوبَ، فلم ينتَقِلْ إلى الرَّفيق الأعلى إلّا وقد تأسَّسَت له دولة الإيمان في المدينةِ ومكَّةَ، وأخذت في التَّوسُّع والانتشارِ.

وفي أمْرِه ﷺ بالصّبر "تهديدٌ للمشركين المكذِّبين بما سيقَعُ بِهِم وراءَ هذا الصَّبر الذي يلقاهُم النَّبيّ ﷺ به محتَمِلًا سفاهَتَهُم وسُخْريتهم، فهو كقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: 17][1].

بيانُ مَرْجِع ضميرِ المُخاطَب في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾:

خطابُ النَّبيِّ ﷺ خطابٌ لأمَّته مِنْ بَعْدِهِ في غير ما اخْتُصَّ به

المُخاطَب بضمير الخِطاب في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ هو الرَّسول ﷺ؛ فَهو الّذي سُئل هذا السّؤال التّكذيبيّ المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، أو هو الّذي سألَهُ وطلَبَهُ تأديبًا للكافِرين.

ثُمَّ يُخاطَب بهذا الضَّمير في الأمْر ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ كلُّ مَن يتصدّى للدَّعوة إلى الله تعالى؛ إذْ لا سبيلَ إلى الوصول إلى الغاية المرجوّة من الدَّعوة إلّا من سبيل الصَّبر على عنَتِ المدعوّين. فيكونُ فيه الإيماءُ إلى أنَّ التماسَ القُدْوَةِ الصّالحة والنّاجحة إنَّما يكون من الرَّسول ﷺ وسلّم، والتَّأسّي به في الصَّبْر مِن أهمِّ ذلك وأوّلاه.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّق الصَّبر في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾:

مُتَعَلّقات صَبْرِ الدّاعية كثيرةٌ؛ فَعِبْئُهُ كبيرٌ، وأجْرُهُ عظيمٌ

سكت النَّظم الكريم عن ذِكر متعلَّق الصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾، وذلك لإطلاق جِهات ما يَصْبِرُ عنه وعليه الرَّسول ﷺ؛ فهي أمور كثيرة، منها ما قذفَهُ المُشْركون به من أنَّه مجنونٌ، وأنَّه ساحِرٌ، وأنَّه شاعرٌ، ومِنْها الصَّبْرُ على كُفْرِهِم وعنادِهِم[2].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1159.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 91.

ومن تقدير متعلّق الصّبر كذلكَ: اصبر على دَعْوَتِكَ لِقومك صبرًا جميلا لا تَضَجُّرَ فيه ولا مَلَل، بل استمرَّ على أمر الله تعالى، وادعُ عبادَه إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدَم انقيادِهم، وعدَم رَغْبَتِهم، فإنَّ في الصَّبْر على ذلك خيرًا كثيرًا[1]، واصْبِر على غُرورِهم وجُحودِهم وجَهالاتِهم[2].

نكتةُ وصْفِ الصّبْر بـ ﴿جَمِيلًا﴾:

الصَّبر الجميلُ يَسْمو بالإنسانِ فـيَرى عـظـائِـمَ الهُمومِ صغائرَ

ورد وصْفُ الجميل في الذِّكر الحكيم لأربعة أشياءَ؛هي الصَّبر الجميل، والصَّفح الجميل، وتسريحُ الزَّوجات السَّراحَ الجميل، والهَجْر الجميلُ. والصَّبر الجميل هو الّذي ليس فيه جزع، ولا بَثَّ فيه ولا شَكْوى، والانتظارُ مِن غير استعجالٍ، والمجامَلَة في الظّاهر[3]، ثُمَّ يَتَرَقَّى الصَّبر الجميل إلى درجةِ أن يكون صاحبُ المصيبة في القوم لا يُدْرَى بأنَّه مصاب[4].

ففي الصَّبر الجميل يَسْمو الإنسانُ، فيرى عظائمَ الأمور ضئيلةً لا تستحقُّ الجَزَعَ والهَلَع، ولا تحتَملُ على الانتقام أو الظُّلم، فتأتي أفعالُه هادئةً لا مضرَّة منها لا في داخِلِ الصّابر ولا خارجَه.

وقد كان ﷺ كذلك؛ مُشْفِقا بهم رحيما، حتّى بلغَت شفقَتُه ورحمتُه وحُزْنُه على كفّار قومِه مبلغًا كادت نفسُه تهلِك فيها، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: 8]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: 6]، فالرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلام كانوا إذا أوذوا لم يكونوا يحزنون لمكانِ أنفُسِهم بما أوذوا، بل كانوا يَحْزَنون لمكانِ مَن يُؤْذيهم؛ خوفًا مِن أن يَحِلَّ بهم الهلاك والبَوار بإيذائهم رُسُلَ الله تعالى، وإشفاقُهم على قومِهم؛ هو الّذي كان يُحْزِنُهم؛ ليس سوء صَنيعِهم ومعاملَتِهم معهم"[5].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 886.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 95.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 91.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 346.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 199.

علَّة فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ عمّا قبلهُ:

فُصلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ عن قوله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لفظًا؛ لِما بينَهُما مِن كمال الانقطاع؛ إذ الجملةُ الأولى إنشاءٌ - وهو أسلوبُ أمرٍ -، والثّانية خبَرٌ، ولا يُعطف الخبَرُ على الإنشاءِ غالبًا. ويُغني عن ذلك العَطْفِ أنَّ الجملة الثّانية؛ وهي قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ واردةٌ موردَ التَّعليل للأمر بالصَّبر[1]، والمعنى: فاصْبِر صبرًا جميلًا؛ لأنَّهم يرونه بعيدًا مع أنَّه في الواقع قريبٌ.

ويَحْتَمِلُ الفصلُ بين الجملتين أن يكون لما بينَهما من شبه كمال الاتِّصال؛ فالجملةُ الثّانية مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّ الله تعالى لمّا قال: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾؛ أنكرَ هذا الكافرُ، فأورث في نفس المتلقّي سؤالًا: لِماذا أنكرهُ الكفّار؟ فجاء الجوابُ: لأنَّهم يعتقدون خُلْفَ وعدِ الله تعالى، أو أنْ لا حَشر ولا نَشر، ويستبعدونَ إمكانَهُ[2]؛ فالرّابط الأسلوبيُّ المعنويُّ بين الجملتين وثيقٌ، فهو أقْوى مِنَ العاطفِ اللَّفْظيِّ.

الرَّوابط الأسلوبيَّة المعنويَّة في القرآن الكريم أقوى مِن اللَّفظيَّة

غرَضُ توكيد الخبَرِ في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾:

توكيدُ الخبَر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ يقتضيه تطييبُ نفسِهِ صلى ﷺ، واستلالُ حُزنه ممّا لقي من سُؤالِهم المستهزئ المكذِّب، المذكور في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، وذلك لأنَّه إذا كان ذلكَ السُّؤال بمعنييهِ - الاستفهام والطَّلَب - استهزاءً وتعريضًا بالتَّكذيب؛ فشأنهُ ألّا تَصبر عليه النُّفوس في العُرْف[3]؛ فاقْتَضى ذلك توكيدَ الخبَر تطمينًا وتهدئةً لنَفْسِ الرَّسول ﷺ.

مِن رحمة الله تعالى برسولِهِ ﷺ تطييبُ نفسِهِ لِما لقي مِن قومه

دلالةُ الخبَر في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾:

الخبر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ يكشِفُ سفاهَةَ تفكيرِ الكافرين، وجهالةَ عُقولِهم؛ إذِ التَّفكير السَّديد

العَقْلُ الرَّشيد يُمَيِّز الحقَّ من الباطلِ؛ فعُقولُ الكفّارُ مطموسَةٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 30.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 12.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 158.

الصّادر عن العقل الرَّشيد يُفضي إلى الوقوف على حقائق الأمور، ويُمَيِّز الحقَّ من الباطل، ويَعْرِف للمواقف مقاديرَها.

وهؤلاء المستهزئونَ بالحقِّ مجرَّدون من ذلكَ، فكانَ في الإخْبارِ بذلكَ استهزاءٌ وتجهيلٌ لهم إزاءَ اسْتِهْزائِهم وتكذيبهم رسولَ الله ﷺ في سُؤالِهم السّابِق.

دلالَةُ الرُّؤية في الفِعْلَيْنِ ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ و(نَراهُ):

معنى الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ أي: يعتقدونَ العذابَ وحلولَ يومِ القيامة بَعيدًا، مستحيلَ الوُقوع. ومعنى الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي: نَعْلَمُه كائنا قريبًا[1]، ففِعل الرُّؤية الأولى بالنِّسبة للكفّار رؤيةُ اعتقادٍ واهمٍ مخدوعٍ جاهل، والرُّؤية الثّانية بالنِّسبة للسَّميع البصير علّام الغيوب رؤيةُ عِلْمٍ وحكمَةٍ صادِقَةٍ، فشتّان بين الرُّؤيَتين!.

علمُ الله تعالى قطعيُّ الثُّبوت، أمّا علم غيرِهِ؛ فظنيُّ الحدوثِ

وذُكِرتِ الرُّؤية الثّانية في معيَّة الرُّؤية الأولى؛ لتَبْعَثَ في نَفْسِ المتلقّي التَّدبُّرَ والتَّفكُّرَ في تبايُنِ معنى اللَّفظَتين لاختلاف مَن أُسنِدَت إليه. وذلك يوجب الوثوقَ وتَرْك الاستعجالِ[2].

بيانُ مرجِع الضَّمائر في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ﴾:

الضَّمير المنصوبُ في ﴿إِنَّهُمْ﴾ يرجع إلى الكافرين المذكورينَ قبلُ في قوله تعالى: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾، والضَّمير المنصوبُ في ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ يحتَمِلُ أن يكون راجعًا إلى العذابِ المتقدِّم الذِّكْرِ في قوله: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، ويجوزُ أن يكون عائدًا إلى يوم القيامَةِ المفهوم من السّياق. ولا تنافيَ بينَهما؛ إذ العذابُ الأكبَرُ الأعظَمُ الذي يحلُّ بالكفّار يكون يومَ القيامَةِ؛ فإذا أنكروا يوم القيامَةِ؛ فقد أنكروا كلَّ ما يكونُ فيها تبعًا.

تَنَوُّع مرجِعِ الضَّمائر مِنْ غير تَعارُضٍ إثراءٌ للدّلالاتِ القُرآنيَّة

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 346.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 66.

بلاغَةُ الكِنايَةِ في لفظَتَي (البُعد) و(القُرب):

في التَّعبير بـ (البُعد) و(القُرب) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ كنايَتان بليغَتان؛ أولاهُما في رُؤيَتِهم العذابَ ويومَ القيامة بعيدًا؛ إذِ البُعْدُ هنا مستعملٌ في الاستحالة وعدَمِ الإمكان؛ لأنَّهم يحسبون أنَّهم على الحقِّ، وأنَّ اللّه تعالى لا يُعَذِّبهم بما آتاهم مِن أموال وأولادٍ.

يُـنْـكِـرُ الـكـفّـارُ الـعـذابَ ويـومَ القيامةِ؛ لكونِهِ مَـجْـهـولًا؛ فلا يخشَونَ شرَّه ولا يرجونَ خيرَهُ

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ دالٌّ "على النَّفي والإنكار، وقد يُسْتَعْمَلُ هذا الحرفُ في موضِعِ النَّفي؛ يقولُ الرَّجل في المناظرة لصاحبه: أبْعَدْتَ في القول؛ إذا أجابَ بشيءٍ لا ثَبات له ولا صحّة، فيُريدُ بقوله: (أبعدتَ) النَّفيَ؛ أي: ليس كما تقولُ، وقال اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٤٤﴾ [فُصِّلت: 44]، ومعناه على نفي النِّداء؛ أي: لا ينادون. أو أن يكون قوله: ﴿بَعِيدًا﴾ أي: مستبعَدًا كونُه، فَبَعُد عن أوهامهم حتّى أنكروه"[1].

وهم "يرونه بعيدًا؛ لأنَّه إذا جاء فإنَّما يجيءُ يوم القيامة، الّتي لا يَدري أحدٌ مَتى تكونُ على فرضِ وقوعِها؛ فهذا الزَّمن المجهول يبدو بعيدًا بحيث يكون مِنَ العَبَث أن يرجو منه المرءُ خيرًا، أو يَخْشى منه شَرًّا، هكذا يقومُ حِساب هذا اليوم عند اللّاهينَ والغافلين، الّذين لا يَعيشونَ إلّا ليومهم: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾ [محمد: 12]"[2].

والكنايَةُ الثّانية في رُؤيَته ﷻ العذابَ ويومَ القيامة قريبًا؛ إذِ القُرب هنا مستعملٌ في الثُّبوت والتحقُّق، أي: "ونراه هيِّنًا في قُدرتنا، غيرَ متعسِّر ولا متعذِّر[3]، فـ "استُعمِل ﴿قَرِيبًا﴾ كنايةً عن تَحَقُّق الوقوع

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 200.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1159.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 346.

على طريق المشاكلة التَّقديرية والمبالغة في التَّحقُّق"[1]. فالمراد بالبعيدِ: البعيدُ مِنَ الإمكانِ، وبالقريبِ: القريبُ منهُ[2]؛ فالقُرب والبُعد على المَجازِ[3].

نكتَةُ إسْنادِ فِعْلِ الرُّؤية في قوله: ﴿وَنَرَىٰهُ﴾ إلى ضمير العظمَةِ:

في إسناد فعلِ الرُّؤية في قوله: ﴿وَنَرَىٰهُ﴾ إلى ضمير العظمةِ - إذ التَّقديرُ: ونراهُ نَحْنُ - تقريرٌ لِلقَطْعِ بصحَّة الخبَرِ، وأنَّ العذابَ لاحِقٌ بِهِم لا محالةَ، وأنَّ يوم القيامة مُلاقيهِم قَطْعًا، والمعنى: "﴿وَنَرَىٰهُ﴾ لِما لنا مِن العظمَةِ التي قَضَتْ بوُجودِهِ وهو علينا هَيِّن"[4].

العظيم سبحانَهُ قديرٌ عليمٌ؛ لا يُعجزه شيءٌ، ولا يَغيب عنه شيءٌ

بلاغَةُ الطِّباق بين ﴿بَعِيدًا﴾ ﴿قَرِيبًا﴾:

جُمِعَ القُربُ إلى البُعد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾؛ لتحقيقِ الطِباق المعنويّ اللّافت، والمفيدِ بِقُرْبِ وُقوع العذابِ في واقع الحالِ بقَدْرِ بُعده في وهْمِ الكُفّار؛ ممّا يَدْعَمُ الصَّبر الّذي أُرشد إليه رسولُ الله ﷺ.

تقريرُ أنَّ البُعد والقُرب عندَ اللهِ تعالى سواءٌ

و"سواءٌ أُريد بذلك قُربُ الزَّمان أو قُرب المكان؛ فهو هيِّنٌ على قُدْرَتِنا، وهو آتٍ لا محالة، وكلُّ آتٍ قريبٌ، والبعيدُ والقريبُ عِنْدَنا على حدٍّ سواءٍ"[5].

موقع جملة ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ ظرفٌ متعلّق بـ ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾، أو بِما يدلُّ هو عليهِ؛ أي: يقَعُ يومَ تكونُ السَّماء كالمُهْل[6]، وكأنَّهم سألوا رسولَ الله ﷺ عن الوقت الذّي وُعِدوا

تنوُّعُ الدّلالات القُرآنيَّة بتنوُّع موقِعِ الإعرابِ

(1) ابن عاشور التحرير والتنوير: 29/ 158.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 609.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 11.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 393.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 393.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 30.

أنْ يقَعَ بِهِم العذابُ، مَتَى وقتُه؟ فنزلت هذه الآية: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾[1].

أو أن يكون الظَّرف ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ متعلّقًا بـ ﴿قَرِيبًا﴾، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ في محلِّ جرٍّ بإضافة الظَّرف إليها[2]، أو بدل من (قريب)[3].

دلالةُ التَّعبير بفعلِ الكونِ مضارعًا في قوله ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾:

في إيثار فعل الكونِ مضارعًا في قوله تعالى: ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ إيماءٌ إلى الحصول في المستقبل؛ أي: أنَّ وقوع العذاب الذّي سألوا عنه يكونُ حينئذ؛ فالمضارع يتَّسع للاستقبال كاتِّساعه للحال. ومِن لطائفه أنَّه يجعَلُ ذلك اليوم مُسْتَحْضَرًا في الأذهان، ومصوَّرةً أحداثُه كأنَّها قائمةٌ وقتَ التِّلاوة؛ فيحصل به التَّأثُّر والخوف، ويتحقَّق به التَّوْبُ والأوْبُ.

استحضارُ المُستَقبَلِ؛ كأنَّه ماثلٌ وقتَ التِّلاوة، وذلك أشدُّ في التَّأثيرِ

نُكْتَةُ اختصاصِ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ بالذِّكر هنا:

اختُصَّتْ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾؛ لأنَّ السَّماء أوثَقُ ما تَراه وأصلبُه مِن عِظَم ما يقَعُ فيه من الأهوال، والجبالَ أشدُّ الأرضِ وأثقَلُ ما فيها[4].

أصلبُ الكائنات يُذاب يومَ القيامة مِن شِدَّته؛ فالإنسانُ به أولى

وإذا كان هذا القلَقُ والانزعاجُ لهَذِهِ الأجرام الكبيرة الشَّديدة؛ فما ظنُّك بالعَبْدِ الضَّعيف؟ الّذي قد أثقلَ ظهرَه بالذُّنوب والأوزار؟ أليس حقيقًا أنْ يَنْخَلِعَ قلبُه، ويَنْزَعِج لُبُّه، ويَذهَل عن كلِّ أحد؟[5].

بلاغة التّشبيه في قوله: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ تشبيهُ السَّماء في

بيانُ شدَّةِ الأهوالِ وعِظَمِ العذابِ يومَ القيامَةِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 200.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 210.
(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1239.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 394.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 886.

تفكُّكها وذَوبانِها وتحلُّل جُزَيئاتها برواسِبِ الزُّيوت المَغْليَّة، وشوائب المعادن المُذابة[1]؛ وفي تَسَيُّلِ جسم صُلبٍ من شدَّة الغليان حتّى يميل إلى الحُمْرة المغْبَرَّة.

وغرضُ التَّشبيه التَّعريضُ بهَوْلِ ما سَيَنالُ المُشْركين مِنَ الأخْذِ الشَّديد والعذاب الأليم، والتَّهديد بأنّ ذلك اليومَ الشَّديد لا تَقوم لِهَوْلِه السَّماوات والأرضون مع صلابتها وغِلَظِها في نفسِها، فكيف يقوم لِهَوْلِها الآدميُّ الموصوف بالضَّعف واللّين؟.

دلالة التعبير بـ (المُهْلِ):

المُهْلُ: عَكَرُ الزَّيتِ؛ أي: تَتَحَوَّلُ السَّماء يومَئِذٍ لونًا آخرَ إلى الحمرةِ[2]، ويكون المعنى على حقيقته أنّ السَّماء تذوب وتتفكّك وتتغيّر في ذلك اليوم مِن لونٍ إلى لون، فتَحْمَرّ مرَّة، وتصفرّ أخرى؛ لشِدَّة هول ذلك اليومِ، فتَكون كدُرْدِيِّ الزَّيت لينًا ولَوْنا متغيِّرا من حالٍ إلى حالٍ.

لا تقوم لِهَوْلِ القيامةِ السَّماواتُ والأرضون مع صلابَتِها وغِلَظِها

ويحْتَمِلُ مِنْ جِهَةِ اللُّغةِ ألّا يحلَّ بها التَّغيُّر، ولكنَّ شدَّةَ ما يَنْزِل بالمرءِ مِنَ الهول والفزع يُضعِف بصرَه حتّى يرى السَّماء على خلاف اللَّون الذّي هي عليه، وهو كما يَرى المرءُ إذا حلّ به الضَّعف والمرضُ في الشّاهد، ووجَدَ طَعْم الأشياء على خلاف ما هي عليها؛ فيكون في ذِكْرِ هذا تهويلٌ وتفزيعٌ أنَّ هول ذلك اليوم شديد لا تقوم لهَوْلِه السَّماوات والأرضون مع صلابتها وغلظها في نفسِها؛ فكيف يقوم لِهَوْلِها الآدميُّ الموصوف بالضَّعف واللّين؟[3].

وهذا وإن كان محتَمِلًا مِنْ جهةِ الصِّناعَةِ اللُّغويَّةِ؛ إلّا أنَّ حملَ الآيةِ على التَّحقيقِ هو المتعيِّنُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 159.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 256.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 200.

وفي تصوير ذوبان السَّماء حتّى تصير مثلَ الذّائب مِن الفِلِزّات، والدُّرِّديِّ[1] من الزَّيت؛ كنايةٌ عن صعوبة ذلك اليوم، وشدَّة حرارته. كما أنَّ في التَّعبير عن ذلك بالمُهْلِ دلالةً على سوء مصيرهم، والمقصودُ من ذلك كُلّه بيانُ أن السَّماءَ تكونَ واهيةً[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾:

التَّناسبُ اللَّفظيُّ والمعنويُّ مُقْتَضٍ العطفَ بينَ الجُمَلِ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ عاطفةً الجملةَ بعدها على جملة ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتان متَّحدتان خبرًا، وبينهما تناسُبٌ في اللَّفظ والمعنى، فأمّا اللَّفظُ فاشتراكُهُما في الفعليَّةِ، واتِّحاد المسنَد فيهما، وما اشتملتا عليه من التَّشبيه، وأمّا المعنى؛ فلأنَّ الآيتين تجمعانِ بين صورَتَيْن خَطيرَتَيْن، وحَدَثَيْن عظيمَيْن واقِعَين في ذلك اليوم، وقد حَسَّن الجمعَ بينَهُما أيضًا تناسُبُهما من حيثُ الضَّخامة؛ فالسَّماء أكبر جِرم عُلويٍّ يراه الإنسانُ، والجبال أكبر جِرْم أرضيٍّ يراه الإنسانُ.

دلالَةُ تَكْرار فِعْلِ الكونِ المضارعِ في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾:

خَبَرُ كلِّ حَدَثٍ مِن أحداثِ القيامة جديرٌ وحدَه بالرَّدع عن التَّمرُّد على الدّين

في تَكْرار فعلِ الكونِ المضارع في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ تنبيهٌ إلى خُطورَةِ كلِّ كونٍ منهُما على جهة الاستقلال، وأنَّ كونَ السَّماء كالمُهْلِ حَدَثٌ وحدَه مُريع، كافٍ في التَّرهيب والزَّجر عن تكذيب الرَّسول ﷺ والاستهزاء بالدّين، وأنَّ كون الجبال كالعِهن المنفوشِ حَدَثٌ وحدَه مُريعٌ كافٍ في الرَّدع عن إيذاء الرَّسول ﷺ، والتَّصدّي لدعوته.

معنى (أل) في ﴿ٱلْجِبَالُ﴾:

الجبال الصُّلبة الشّامخة تتفتَّتُ وتتطايرُ خِفَّةً يومَ القيامةِ

(أل) في ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ دالّةٌ على الاستغراقِ؛ أي: جميعُ الجبالِ

(1) "ما يَرْكُدُ في أسْفلِ كُلِّ مائعٍ كالأشْرِبة والأدْهان"، يُنظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 2/ 112.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 67.

الأرضيَّة تكون كذلكَ، كما يدلُّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: 105 - 107]. ويجوزُ أن تكون اللّام في (الجبال) مفيدةً الكمالَ، فهي توحي باكتمال خصائصِ الجَبَليَّة فيها، وأنَّها الجبالُ العِظام الصَّخريَّة المَتينَةُ، وعلى الرُّغم مِنْ ذلك؛ فإنَّها تصيرُ كالصّوف الهَشِّ المُتطايِر، لا ثِقَل لها ولا صلابةَ فيها، وفي ذلك كنايةٌ عن شدَّة هول ذلك اليوم، وما سيعانيهِ الكفّار المستهزئون مِن صنوفِ العذابِ.

دلالة التَّعبير بـ (العِهْنِ):

مـن خـصـائـص التَّشبيه القرآنيّ الاتِّـسـاقُ بين طرفَيْه

في تصوير الجبالِ بصورة العِهْن كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ مراعاةٌ لِحَيْثيَّة اللَّون إلى حيثيَّة الكثافَة، فاللَّوْنُ أصباغٌ مختَلِفَةٌ مُتَداخِلَةٌ، تُغَطّي كثافةً هشَّة متناثِرَةً مِن صوفٍ مُتَطايِرٍ مُبَعْثَر، تلك صورة الجِبالِ الّتي تكون عليها يوم القيامةِ، وقد قالوا: "لا يُقال عِهْنٌ إلّا للمصبوغ، وأوّل ما تتغيَّر الجبالُ تصير رملًا مهيلًا، ثُمَّ عِهْنًا منفوشًا ثُمَّ هباء منثورًا"[1].

ومن دِقّة تصوير الجبال بالعِهْن: اتِّساقُ لونِ الطَّرفين؛ حيث إنّ الله سُبحانَهُ قال ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: 27]، فإذا بُسَّتْ وطُيِّرَتْ في الجوِّ؛ أشبَهَتْ العِهنَ المَنْفوش إذا طيَّرَتْه الرّيحُ[2].

بلاغَةُ التّشبيهِ في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾:

التَّنبيه بالأعْلى عن الأدْنى

في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ شُبِّهت الجبالُ بالصّوف المَصْبوغِ بألوانٍ مُخْتَلِطَةٍ مُتَداخِلَة. ووجهُ الشَّبه بينَهُما تطايرُ شيءٍ هشٍّ مختلط الألوان؛ لذلك جاء تشبيهًا كاشفًا عن حال تلك الجبالِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 394.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 609.

الّتي كانت في الأرضِ أوتادًا، شادّةً لَها مُثَبِّتَة إيّاها؛ فكانت لا تمورُ بأهْلِها، وصارت إلى تلك الصّورة من الهَشاشَةِ والخفّة، وإذا كان ذلك حالَها؛ فحالُ الأرضِ عُمومًا أخطرُ، وحالُ البَشَر أشدُّ خطورةً بطريق الأولى، فيكون في هذا تنبيهٌ بالأعلى عن الأدْنى.

و"في تشبيهِ السَّماء بالمُهْل والجِبال بالعِهْن، وما يَغْلِب على التَّشْبيهَيْن مِن لونِ الحمرة؛ في هذا إشارةٌ إلى تغيُّر طبيعة لونِ الجوّ في مَرْأى العَيْن، وذلك حينَ يكونُ مَوْقِعُ النَّظر من خارج الغلاف الجويِّ للأرض؛ حيث تبدو السَّماء والأرضُ مَكْسوّتَيْن بلونٍ أشبهَ بلَوْنِ الأفُقِ الدّاكن بعد الغروب، أو قبلَ الشُّروق"[1].

معنى (الواو):

(الواو) في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ عاطفةٌ جملة (لا يسأل حميمٌ حميمًا) على ما قبلها؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ فالجملتان خبريَّتان، وبينهما تناسبٌ لفظيٌّ لاتِّحادهما في الفعليَّةِ والمضارعيَّةِ، وتناسبٌ معنويٌّ؛ لأنَّ جملة ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ كاشفةٌ عن حالِ النّاس المسبَّب عن حالِ السَّماء والجبالِ، فالأهوالُ قَد تكاثرَتْ على النّاس حتّى ذُهِلَ الأحبَّة عن بعضِهم بعضًا، بل وردَ أشدّ من هذا في قول الله تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحَجّ: 2].

ما كان مُتَماسِكًا في الدُّنيا يتهدّم يـومَ القـيامَةِ، حِسّيًّا كـان أو مَعْنَويًّا

وتلك الواواتُ في الحقيقةِ تعطِفُ المعانيَ لا مجرّد الألفاظِ؛ فكلُّ شيءٍ كان مُتَماسِكًا مَتينًا في الدُّنيا يتهدّم في ذلك اليوم، حِسّيًّا كان كالسَّماء في العالم العلويِّ، وكالجبال في العالَمِ الأرضيِّ، أو معنويًّا كالصّداقاتِ والمحبَّة، كالّتي تكون بين الأب وأبنائه، والزَّوج وزوجِه، والأصدقاء المُخْلصينَ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1160.

معنى (لا):

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ نافيَةٌ، قاطعَةٌ بانْشِغال كلِّ إنسان بنفسه، ومن جملتِهم السّائلُ المكذِّبُ الّذي تقدَّمَ ذِكْرُهُ في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، فلقد لفَّه الذُّهول إذ حلّ به العذابُ الّذي كان في الدُّنيا يُكَذِّب به، ويستهزئُ بأخبارِه.

كـلُّ إنـسـانٍ يَـنْـشَـغِـلُ يـومَ القيامَةِ بِنَفْسِه، ولا يُعْنَى بغيرِها

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿حَمِيمٌ﴾، ولطيفَةُ تَنْكيرِهِ:

الحميمُ هو القريبُ، الّذي كان يَعطف ويَحْنو على قريبِه ويحتدّ حمايةً له[1]، والمعنى: "لا يسألُ قريبٌ مشفقٌ قريبًا مُشْفِقا عن حالِه، ولا يُكَلِّمه؛ لابْتِلاءِ كلٍّ منهم بما يَشْغَلُه عن ذلك"[2]، والمقصودُ: أنَّ كلَّ صاحبِ صلةٍ متينَةٍ بحميمِه؛ مِنْ قريبٍ شفيقٍ، أو صديقٍ رفيقٍ، أو زوجٍ حبيبٍ، أو ابنٍ عطوف، إلى غير ذلك من أصحاب الرّوابط المتينَةِ؛ ينشَغِلُ بنفسِه عن غَيْرِه مِنْ هَوْلِ ما يكونُ في القيامَةِ.

انْقِطاعُ الصِّلاتِ يـومَ الـقـيـامَـةِ لـشِـدَّة هَـوْلِـه وعِظَمِ كَرْبِه

وفي إيثار التَّعبير بـ ﴿حَمِيمٌ﴾ فاعلًا ومفعولًا أوّلَ في جملة ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ دون (حبيب)؛ دلالةٌ على أنَّ صِلَتَهُ بحميمِه كانت في الدُّنيا أقوى الرَّوابط الإنسانيَّة حَميميَّةً، وأنّها تتفكّك وتذهَب، وتنتهي بالكلّيَّة يومَ القيامة؛ كنايةً عَن صُعوبَته، وثِقَل أحداثِه، وشِدَّة سَطْوَتِها على النّاس، فاللهمَّ حفظَك يا حفيظُ.

ويدعَم تلك الدّلالاتِ الخطيرةَ تنكيرُ لفظِ ﴿حَمِيمٌ﴾ و﴿حَمِيمًا﴾؛ إذْ إنَّ تنكيرَهُما يُفيد تعظيمَ الصِّلةِ بينَهما وتهويلَ أمْرِها، فكانَ حقُّها أن تبقى، أو يبقى على الأقلِّ قدرٌ منها. فدلَّ ذهابُها وذهولُ الحميم عن الحميم على بلوغ شدَّة يوم القيامة مبلغًا لا يمكنُ تصوُّره على ما يكون عليه.

ووراءَ تنكير ﴿حَمِيمٌ﴾ في الفاعل والمفعول كنايةٌ عن تقاطُع ما دون

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1574.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 67.

الحميميَّة من صلاتٍ بطريقِ الأوْلى، وصدقَ اللّه العظيمُ؛ فقد قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: 34 - 37].

دلالةُ اتِّحادِ لفظِ المفعول مع لفظِ فاعله في: ﴿حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾:

في إيثار لفظِ المفعولِ مِن حروفِ فاعله في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ براعَةٌ نظميَّة دقيقة؛ حيثُ يتَّسق اتِّحادُ الكلماتِ هُنا مع اتِّحاد الصِّلاتِ الإنسانيَّة لتصوير شدَّة الارتباط بين الحَميمَيْن، وكأنَّهما قد ذابا في بعضِهما، ومع ذلك يذهَب ذلك الاتِّحاد، ويذوبُ ذلك الارتباطُ، ولا يَذكرُ أحدُهما الآخرَ، ولا يسألهُ عن حالِه، ولا يسأله شيئا مِنَ المَعونَة؛ لِعلمه بعجزِه عن نفعِه بشَيْءٍ.

من براعة النَّظم القرآنيِّ اتِّحادُ الألفاظ المعبِّرة عن اتِّحاد الصِّلاتِ الإنسانيَّة

بلاغةُ الكِنايَةِ في قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾:

في عدم سُؤالِ الحميم - كائنًا مَن كان - الحميم - كائنًا مَن كان -: كنايَةٌ عن فظاعة أحداثِه حتّى يصير الكفّار في ذهولٍ شديد وكربٍ عظيم، وعَنْ شدَّة الهَوْلِ الّذي يتملّك الجميعَ، إلّا مَن كان مِن أهل الإيمانِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّخرف: 67]، فإنَّهم يكونون في حفظِ اللّه تعالى وأمانِه ورعايتِه.

يوم القيامَةِ يتملَّك هولُه جميعَ الكفّارِ

دلالَةُ حَذْفِ متعلّق ﴿يَسْـَٔلُ﴾:

حُذِف متعلّق الفعل ﴿يَسْـَٔلُ﴾؛ لِظُهوره مِن المقام؛ أي: "لا يسألهُ نُصرةً، ولا منفعة؛ لِعلمه أنَّه لا يَجِدُها عندَهُ، ولا يسأله عن حالِه لأنَّها ظاهرة، قد بُصِّرَ كلُّ أحدٍ حالةَ الجميع، وشُغِل بِنفسه[1].

وحذْفُ مفعولِ ﴿يَسْـَٔلُ﴾ يَتَّسق مع هولِ المَوْقِف وضيقِ المقام، ويُجَسّد انشغال كلِّ واحدٍ بِهُمومِه عَن غيره؛ فلا مجالَ لسُؤالٍ أصلا،

حذفُ اللَّفْظِ مِنَ النَّظم القرآنيِّ قَدْ يقابِلُ غيابَ مَعْناهُ عَن الواقع

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 366.

فَضْلًا أن يكونَ سُؤالًا عَن شيء مخصوص. وهكذا تبدو البَراعَةُ النَّظميَّة في القرآن الكريم في أنَّ حَذْفَ اللَّفْظِ مِنَ النَّظم القرآنيِّ قد يُقابِل غيابَ معناهُ عَنِ الواقع.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة في الفعل ﴿يَسْـَٔلُ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بين القراءات القرآنيَّة

قرأ ابنُ كثير (ولا يُسْأَلُ حَميم) بضمِّ الياء، وقرأ الباقون ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ بفَتْحِها، فمَن قرأ بفتح الياءِ؛ فالمعنى: أنَّهم يَعْرف بعضُهُم بعضًا، ويدلُّ عليه قولُه تعالى بعدُ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

ومن قرأ ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ حَمِيمٌ﴾ - بضمِّ الياء - فالمعنى: لا يُسْأل قريبٌ عَن ذي قرابتِه. ويكون ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ مرادًا به الملائكة[1]؛ أي: لا يُسأل قريبٌ عن قريب، فلا يُطالَب به، ولا يُؤخذ بذنبه[2]؛ لأنَّ ذلك اليوم هو يومُ العَدْلِ، وليس مِن العدل أن يؤخَذُ أحدٌ بذنب غيره. ومن قرأه بالفتْح؛ فتأويله: لا يَسأل حميمٌ حميمًا - من شدَّة ذلك اليوم وهولِه - النُّصرةَ والشَّفاعةَ، أو لا يَسْأَلُ عَن حالِه بِما حلّ به مِن الشُّغل في نفسه[3]. والمعنيانِ يُكمِّلُ أحَدُهما الآخَرَ ويُقوّيه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحميم والحبيب:

الحميمُ القريبُ المشفِق، والحبيب المائل بِقلبه إلى سواهُ

الحميم هو القريبُ المشفِق، فكأنَّه الّذي يحتدّ حمايةً لِذَويه، واحتمّ فلانٌ لفلان: احتدّ[4]، والحميم: القريبُ الّذي تَوَدُّه ويودّك، وقريبُك الّذي تهتمّ لأمره، قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فُصِّلت: 34]، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشُّعراء: 100 - 101]، والخِلّ الحميمُ: الّذي يُكِنُّ لك حبًّا شديدًا[5].

(1) الهروي، معاني القراءات: 3/ 89.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 537.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 201.
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (حمم).
(5) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حمم).

والحبيبُ؛ مِن قولهم: أحبَّ الشَّيءَ أو الشَّخصَ؛ أي: ودَّه ومالَ إليه، ضدّ: كَرِهَه، ومِنْهُ قول خالد بن الوليد ﷺ: "لَآتِيَنَّكُمْ بِقَوْمٍ يُحِبّونَ المَوْتَ كَما تُحِبّونَ الحَياةَ"[1]؛ أي: يرغبون فيه ولا يخافونه، ومنه قولهم: "مَن أحبَّ شيئًا؛ أكثر من ذِكْره"[2].

(1) رواه سعيد بن منصور في سننه، برقم: (2482).

(2) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حبب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"